عظماء الدنيا وعظماء الآخرة

منذ سنوات كنت في زيارة لقلعة صلاح الدين الأيوبي بالقاهرة . وفي مسجد (محمد علي) توقفت أمام ضريحه الضخم في الركن الخلفي من المسجد ، وكنت أتأمل الضريح مُحدِّثا نفسي ؛ أهذا هو قبر : محمد علي ، صانع نهضة مصر الحديثة صاحب الدولة والسلطان والجيوش المجيشة، ذلك الذي أقضَّ المضاجع ، وفتح البلدان ونال من العز والعظمة وقوة السلطان في زمنه مالم يسبقهٍ إليه أحد وتآمرت على تقويض ملكه كبريات الدول آنذاك خوفا من سطوته وتوسع دائرة نفوذه.

نعم وحسب الأحداث التاريخية التي توليها الحكومة المصريةٍ جل اهتمامها فإن الرجل مدفون هنا في ضريح ضخم تعظيما له من محبيه وقادة بلاده في زمنه، و مع هذا فلا يكاد يلتفت إليه زائر ولا يقف على قبره مسترحم ولا مستغفر له ؛ وقد يعظم بعضهم الضريح أكثر من تعظيم من بداخله !

ثم وقفت على يساري صبيَّةٌ صغيرة تتأمل المقبرةٍ من خلال السور الحديدي وما لبث أبوها أن سحبها من ذراعها قائلا :

هيا... هيا فقالت الفتاة :(إيه يا أبي ألا نقرأ له الفاتحة) ؟ على عادة بعض الناس في كثير من الدول الإسلامية التي يخلطون في دينهم الحق بالباطل ؟ فشدها أبوها من يدها وقال: لا داعي لذلك فهل كان وليًّا حتى ندعو له أو نترحم عليه ؟فتذكرت قوله تعالى : (يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاْءُ)[1] . فشتان ما بين عظماء الدنيا وعظماء الآخرة .

---

(١) سورة آل عمران ، آية ٧٤